PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(5): 529-538
ISSN: 1553-6939

The cultural pattern in the short story collection; A Point to Hell by Saeed Boutagine.
An approach from the perspective of cultural criticism

Dr. meskine toufik [1*]

[1:] Higher Normal School of Béchar, (Algeria) ، meskine.toufik@ensbechar.dz

Received:10/05/2024 ،Published: 10/07/2024

ABSTRACT:

The short story is considered one of the literary genres that took upon itself the issue of intellectual enlightenment, and it is not surprising that it is the most powerful through its brevity, which it insisted on, as well as its ability to touch upon the daily details that concern humans.
This approach will be in two tracks: A theoretical track through which you try to give an overview of the nature of the short story and its artistic characteristics, highlighting its characteristics according to Al-Saeed Boutagine.
And an applied path, through which it attempts to capture some of the patterns that abound in the group's cultural treasury.
Keywords:
System, culture, corruption, value, man, story.

النسق الثقافي في المجموعة القصصية؛ نقطة إلى الجحيم للسعيد بوطاجين.
مقاربة من منظور النقد الثقافي

د. مسكين توفيق [1] *

[1] المدرسة العليا للأساتذة بشار، الجزائر، meskine.toufik@ensbechar.dz

الملخص:

تعتبر القصّة القصيرة من الأجناس الأدبيّة التي حملت على عاتقها مسألة التنوير الفكري، ولا غرابة فهي الأقدر من خلال قصرها الذي ظلّت مصرّة عليه، وكذا مقدرتها على تلمّس التفاصيل اليوميّة التي تخص الإنسان.

ستكون هذه المقاربة في مسارين: مسار نظريّ تحاول من خلاله إعطاء نبذة عن ماهية القصّة القصية وخصائصها الفنّية، معرّجين على سماتها عند السّعيد بوطاجين.

ومسار تطبيقيّ، من خلاله تحاول استكناه بعض الأنساق التي زخرت بها الخزانة الثقافيّة للمجموعة.

الكلمات المفتاحية:

نسق، ثقافة، فساد، قيمة، الإنسان، القصّة.

-مـقـدّمـة :

تعود أولى تشكّلات القصة القصيرة في الجزائري إلى بدايات القرن العشرين على يد التّيار الإصلاحي، الذي مافتئ يتحرّى الجنس الأدبيّ الأقدر عل يحفظ المقدّس الهوويّ : الدين، اللغة ، الأرض، وهو ما يذهب إليْه عبد الملك مرتاض حين يرجّح أنْ تكون قصّة «فرانسواوالرشيد » لمحمد سعيد الزاهري، والتي نشرتها صحيفة (الجزائر) سنة 1925؛ فاتحة القصّ الجزائري القصير[1]، على أنّ هذا الجنس شهد تغوّلا واسعاً بعد هذا وبخاصّة بعد الاسقلال، فقد أحصى قاسمي محمد في كتابه « بيبليوغرافيا الأدب المغاربي المعاصر» مائة وثلاثٍ وستّين مجموعة قصصيّة منها تسعة وسبعون مجموعة صدرت في فترة الثمانينات وحدها[2] .

وفي ظلّ غياب أنموذج محلّيٍ يحتذي؛ لم يكن للقصّة الجزائريّة القصيرة خيارٌ غير تبنّي المرجعيّة المشرقيّة ممثّلة فيما كان ينشره يوسف إدريس وتوفيق الحكيم ولويس عوض في كبريات الصحف العربيّة، ولم تفكّ هذه التبعيّة للمشرق إلّا في مرحلة السعبينات مع الإيديولوجيا الاشتراكية المتغنيّة بإنهاء الطبقيّة، ومجانيّة التعليم والصّحة، وإذا كان البعض ينقم على الاشتراكيّة خلق إبداع تابع منغلق لا يرى الأشياء إلّا في إطار إحداثيّات مرسومة قبلاً؛ فإنّ هؤلاء ليس في وسعهم أنْ يجحدوا عبقرية هذا الأدب المؤدلج في النفاذ إلى تفاصيل المجتمع، ورصد يومياته بصدق، ومرافقة آماله وتطلّعاته .

ستكون القصّة القصيرة قبيْل اِنهيار الإيديولوجيا الشّرقيّة في مواجهة انفتاح غير مسبوق في الثيمات والأشكال أدّى إلى اكتمالها فنّياً ومضامينياً، فسيرقب المتلقّي عن كثبٍ ثيمات من مثل الجنس والدين والسياسة، وغيرها ممّا كان هامش الحرّيّة لا يسمح به من قبل، كما ستفيد القصّة الكثير من مختلف مجالات المعرفة كعلم النفس وعلم الاجتماع، ما أحالها في النهاية بؤرة حقيقيّة من بؤر الفكر، ليس يعتري الباحث أيُّ حرجٍ في الإفادة من معينها، ولعلّها اللّحظة التي حوّلت اِ هتمام القصّة من شكل من تعبير يّ متّهم بالميل نحو الترف الفكريّ السّريع، إلى أداة مادّية تعمل على بثّ التنوير، وتكريس القيم التي تضمن التعاش الإنسانيّ داخل المجتمعات، وتقضي على الوهم والانغلاق المعشّشين منذ حقبٍ في وجدانها، وهو ما ظهر زمن العشريّة الحمراء حين وقف كتّاب هذا الجنس مع باقي المؤسّسات لمكافحة التطرّف .

1. خصوصيّة القصّة القصيرة عند السّعيد بوطاجين :

ليس من اليسير الحديث عن خصوصيّة القصّة القصيرة عند السّعيد بوطاجين دون الحديث عن جملة من الظروف التي أسهمت في تكوين هويّته الأدبيّة والسّرديّة خصوصاً، فلا يمكن – بأيّ حال من الأحوال- تجاهل خلفيّته المعرفيّة كأكاديميّ متخصّص في علم السّرديات، ومن ثمّة كان ما تبثُّه موهبته من سردٍ مستنداً إلى المنهج العلميّ الرصين، ومُضَاءً به، وهو الذي حضر محاضرات غريماس وكريستيفا في جامعة السّوربون، ستظهر استفادته من السيميائيّات - أيضا- حين نباشر لغته السّردية، والتي لا يغيب عنها الحذر والتوجّس في لحظة اختيار العلامات، كما أنّه لا يمكن توقّع الحشو حيث الاقتصاد اللّغويّ رأس السّرد عنده، ناهيك عن تفنّنه في خلق شعريّة سرديّة تحمل بصمته، ينضاف إلى هذا؛ خصوبة المرحلة التي عاشها وبخاصّة السبعينات والثمانينات؛ والتي شهدتْ ميلاد التحوّلا ت الكبرى في المجتمع

الجزائري، حيث الانتقال من دولةٍ تابعةٍ إلى دولة مستقلّة، ولاحقاً مؤدلجة بالفكر الاشتراكي، وما صحب هذه المرحلة من صراعٍ هوويّ على مستوى اللّغة، والذي طفا على السّطح مع أوّل شروق في التسعينات .

على المستوى الفنّي – أيضا - يمكن رصدُ بعض تمثّلات هذه الخصوصيّة، والتي تتجسّد أوّل ما تتجسّد في ظاهرة العنونة، وهي « ماركة » مسجّلة باسمه، فلن يغيب عنه – وهو المتخصّ في السيميائيات أنّ العنوان« هو العتبة الوحيدة التي يناط بها جمع الشتات النصّي بصرف النظر عن إشهاريّتها »[3] ، بعد هذا سيكون القارئ إزاء كم من العناوين الصّادمة من مثل «اللعنة عليك جميعاً»، «أحذيتي وجواربي وأنتم»، «وفاة الرجل الميّت»، « نقطة إلى الجحيم»، وغيرها ممّا تنكفئ دونه علامات اللّسان التقليدي دون أنْ تصل إليه، وهو ما يشي بمهارة غير عاديّة في ممارسة صنوف من الألعاب اللّغويّة، والتحكّم في قواعدها، « لغة تلمح دون أن تبوح، تشير ولا تعيّن في أثناء اِنخراطها في الأسئلة الكبرى، وعبر انتقالها بين القضايا الوجوديّة »[4] .

في الجانب المضاميني نحن إزاء كاتب يرفض أنْ يكون سحابة صيف في المشهد السّردي، من خلال تواتره وتواجده باستمرار في خضمّ مختلف المناسبات والتحوّلات؛ عملاقاً سافراً عن ثقافة ووعي، يشع ويطلّ في كل الجهات بسخاء الورد والعسل، فمن خلال وعيٍ حادّ بدور المثقّف، لا يرضى السّعيد بوطاجين أنْ تكون كتابته إلّا كتابةً منخرطة في الشّأن العام، وبرغم اختلاف أشكال التجريب التي تشهدها سردياته فلا بديل عنده في هذه التنويعات عن الثّابت الإنساني، فيستدعي البادية والصحراء بكلّ ما فيها من روحانيّة صافية، ويمعن في الهروب من المدن وإسمنتها وعنفها، ثمّ ييمّم وجهه نحو أسمار الجدّات الدافئة، والميثولوجيا والأسطورة، يتصدى للعرف واعتباراته ، فلا تدور عليه أحكامه، فالأرض عنده ليست لمالكها؛ بل للإنسان الذي شرعنت كلّ الديانات متعته عليها، أنّ التاريخ من وجهة نظر السعيد بوطاجين ليس هو تاريخ الأجساد فقط، بل إنّ جانبه الأكبر صنعته الأرواح، لذلك فكلّ ما فعله السّرد إلى الآن هو كتابة التاريخ في صورته المسطّحة التي لا تخرج عن انتقائيّة في اعتبار الأحداث الكبرى إحداثيّات أساس في تشكّله، بينما تناسى أنْ يكتب الحضارة، المراد الكونيّ من وجود الإنسان ورفاهه، « فمن خلال شحنة حداثية مؤثّثة بوعيٍ لا يلتفت للشّذوذات التي أفرزها الاسترداد المجانيّ للمشاريع الأنسانيّة - والتي تسبّب في جانبٍ كبير منها الإخفاق الترجميّ المدمّر للمفاهيم - نسيح في متاهة قصصه فلا نجده هناك، ثمّ لا ندري من أين يجيء بعيْد ذلك بقليل، مؤمن بالتجاوز والحلقيّة، وفي الآنِ ذاته بقداسة الخصوصيات، ليست التحديث عنده إلّا العبقريّة التي ترتكز على المحلّي في أوّل انطلاقها »[5].

2. النّص بين المقاربة اللّغويّة والثقافيّة :

هلّت الحداثة كمشروع إنسانيّ على الوجود بعد قرونٍ من الوهم أزرت بإنسانيّة الإنسان لحساب دوائر ضغط ليس من مصلحتها بزوغ فجر التنوير، فمنذ اللحظة الكانطيّة – وبعدها اللحظة الهيجليّة- استدار العقل الإنسانيّ في لحظة وعيٍ عميق ليجد نفسه غارقاً في مسلّمات ترتكز على تبريرات غاية في الوهن، فمضى يعرّي القدر الأنطولوجي للذات والبنيات والتمثّلات، ويكشف سوأة المقولات القبليّة، ويفكّك مركزيّتها بعنف لا يريم .

وإذا كان يحسب للحداثة فضل إحداث أكبر خطوة وعيٍ في تاريخ الإنسانيّة، وهي « التي عبّر عنها نيتشه على لسان الأنسان السامي أعرف قدري.. ذات يوم سيقترن اسمي بذكرى شيء هائل رهيب؛ بأزمه لم يُعرف لها مثيل علي وجه الأرض، أعمق رجّة في الوعي... فأنا لست إنسانًا، بل عبوة ديناميت »[6]، فإنّه لا يمكن تناسي ما خلّفته من ندوب على جسد الإنسانيّة وروحها، وما أفرزته من شذوذات أغراها بها تقديسها لحريّة منفلتةٍ لا تلتفت إلى هدوء الكون، ففي غمرة تقويضها للوهم لم تتفطّن الحداثة - إلّا بعد زمن - أنّها قوّضت مع هذا الوهم ثوابت لا تستغني عنها إنسانيّة الإنسان، وكأنّها بذلك قوّضت الإنسان نفسه، وفي أبسط شذوذاتها تسبّبت في حربين كونيّتين ما زالت أسئلة الانجراحات التي خلفتها على الأنسان قائمة إلى الآن .

سيعاني النصّ من عنف الحداثة كما عاناه الأنسان، لأنّه سيدخل في « بروكوستيّة منهجيّة » [7] تتعسّف في كثير من تصوّراتها، واصطناعاتها للمآل الدلالي، وليس هذا إلّا لكونها لا تجد أداةً تقارب بها هذا النصّ غير اللّغة، لأنّ هذا – بزعمها يتناسب مع تصوّرها للنّص على أنّه بنية لغوية .

ومع سقوط السّرديات الكبرى وتهاوي المقولات النهائيّة التي فرضتها الحداثة عاد الحديث من جديد عن محاورة النصوص، وكان لا بدّ - قبل هذا- إعادة مفهمة النصّ لتنوجد الأدواة التي يُستَعان بها في المحاورة؛ وهو البحث الذي أفضى إلى أنّ النص قبل أن يون تشكيلاً لغوياً؛ « فهو حادثة ثقافيّة بامتياز ، تسبّب فيها نسق مستفحل في لاوعي الإنسان، ومن ثمّة؛ ليس في الإمكان رسم محاورة لأيّ نصّ بمعزلٍ عن السّياق الثقافيّ الذي أنتجه – النفسي والاجتماعي، والسياسي ،والأسطوري... وتبعا لهذا يجب أنْ تتجدّد أدوات محاورته، والتي يجب أنْ تكون جزءاً من منظومة مفاهيم سابحة داخل مجالٍ معرفيٍّ بينيٍّ »[8]، والذي اصطلح عليه لاحقاً بالنقد الثقافي .

تقوم المقاربة الثقافيّة من خلال الارتكاز على عتبة اللغة، ولكنْ ليس من أجل إلى الوصول إليها، بل من أجل خلق مساحة من التأويل تسمح باستكناه النسق الذي ينكتب بين العلامات، والذي تمركز في اللّاوعي الأنسانيّ منذ القدم عبر تراكمات تاريخ السّلوك، ثمّ استشراف النسق الذي يمكن أنْ يفرزه النسق الأصليّ، والبحث في الأنساق الصغرى التي تدور ضمن النسق الكلّي، والذي هو أشبه شيء بالقدر حين تكون له المقدرة على التحكّم في ميول المؤلّف، فليس بالضّرورة أنْ يكون موافقا لقناعاته، بل لا يكون في جلّ تمثّلاته إلّا مناقضا لها، وهو ما قرّره الناقد عبد الغذّامي جرياً على نظريّة القبحيات، مع ما على هذه النظريّة من تحفّظات .

3. الجزء التطبيقي :

يظلّ تاريخ الإبداع على موقفه في تأبّيه أنْ يهب سمة الخلود للنصّ الإيديولوجي؛ إلّا بقدر إشعاع الإنسانيّ في ثناياه، لأنّ هذا النمط من النصوص لن يعيش طويلاً حين تصبح الإيديولوجيا أو السّلطة التي كان يتمسّح بها في حكم العدم، وتبقى هناك استثناءات مضيئة – لكتاب كبار- بقيت برغم إغراقها في الأدلجة، وليس هذا إلّا لأنّ الأدلجة عندهم كانت سبيلهم إلى الإنسان بصرف النظر عن إشهاريّتها .

« نقطة إلى الجحيم »؛ المجموعة القصصيّة السابعة للسعيد بوطاجين، بعون 2018، عن (دار الجزائر تقرأ)، مجموعة - كما يقول عنها- « ...كُتبتْ هذه النصوص في سياقات مخصوصة، في ظروف نفسيّة متأزّمة كالعادة، وذلك لتوفّر كل الشّروط الموضوعيّة لهذا القرف العام، من المحيط والعلامة، والموضوعات الميّتة، كان وقتي سرياليّا أو شيئًا ما يشبه اللّاشيء، ومع ذلك كابرت... » [9]، وهي تلميحة إلى الأوضاع التي تلتْ العشريّة السوداء، والمتميّزة بخروج دوائر الضّغط عن كلّ الأطر الأنسانيّة من خلال فسادٍ ممنهجٍ على كافّة الصّعد، والذي غدا نسقاً كلّياً تتحرّك داخله العشرات من الأنساق الجزئيّة كروافد تستمدّ منه سطوتها، وتعظّم كلّيته حين تتواشج مع بعضها بعضاً، فلا تدع مجالاً لنقضها، وهو ما تمثّل واقعاً في فرديّةٍ مطبقة ترفض مبدأ التداول والتناوب، بعض من هذا هو ما تحاول هذه المقاربة الكشف عنه، واستكناه أنساقه .

1.3. العنوان :

يعرف العنوان على أنّه النسق اللّغوي الذي يجتمع إليه الشّتات النّصي، ومن ثمّة فليست مغالاةً أنْ يعتبر نصّاً موازياً، واهمّ مفتاح دلاليّ لمغاليق التشكيلات النّصيّة، في سياق مفاهيميّ كذا يستغلّ السّعيد بوطاجين خلفيّته المعرفيّة – سرديّة وسيميائيّةً – في بلورة عنوان صادمٍ لا يعترف بالتجاور التقليدي للعالامات، ويهتك العرف الدلالي، فالمعتاد أنْ يقول المتحدّث : « نقطة إلى السطر» حين يرغب في إنهاء الحديث، أو يريد أن يعلن تمام أمر، ليستأنف غيره، وهو أمر ترتاح له النفس نسبيّا اتضمّنه بداية جديدة، أمّا أنْ تكون الـ « نقطة إلى الجحيم»، فهي البداية نحو الجحيم، فلا حاجة إذن للحديث عن الحجيم لأنّه لا يخفى .

كذلك – كما سيظهر في باقي العناوين الفرعية- ستكون ثيمة العنونة رأس كلّ جمالية قبل ولوج النص، سيكون المتلقّى تحت إرباك مستمرّ حين ينطرق سمعه بعناوين من مثل : « أجل موافق»، « السّعيد بوطاجين»، وهما أكثر قصّتان فادحتان من خلال اكتظاظهما بسيميائية القتامة والسّواد، والسخرية الموغلة في المرارة .

2.3. نسق الفساد – العلامة وممكناتها في « أجل، مو افق»[10] :

يشكّل نسق الفساد أهمّ عنصر في النسقيّة الكونية لارتباطه الوثيق بحركة السياسة والاقتصاد، من هنا طفحت كتب الفلسفة والوعظ بالإشارة إليه؛ والتحذير مناستحكامه لأنّه بؤرة تجتمع إليها كلّ أنواع الانحرافات التي تؤذن بخراب العمران، سينجرّ عن نسق الفساد تململ اجتماعيّ وحركات نضالٍ هي ما يبشّر به التصوّر الماركسي و التاريخانيّة في نظرية جدل الأنساق واصطراعها؛ لينتهي الأمر إمّا باستفحال الفساد وإحكام قبضته مدّةً إضافيّة، أو أنْ يزاح كسرديّة لم يعد لوجودها مبرّر وفق تصوّر السّردية المناضلة .

تحكي« أجل، موافق» قصّة ابن أحد النافذين الذين يتقرّب للحصول على عمل مدير في شركة (سوناطراك) أهمّ عصب - الحياة المالي- استناداً إلى وساطة يوفّرها له والده، أمّا مؤهلاته فلا تزيد عن« نفوذ أبيه ، وشهادات الميلاد »[11]، سيكون المنصب مضمونا لهذا الشاب، والأكثر من هذا سيكون على المؤسّسة أنْ تستجدي قبوله للمنصب، لأنّه هو سـ (يشرف)

الوظيفة، وبتقنية الاسترجاع يعود السّارد إلى تاريخ هذا الشاب وتاريخ والده، ليسلط الضوء على عبثهما بعقارات الدولة مقابل تسهيلات خرافيّة، وهو ما يعني أنّ تقدّم الشاب للمنصب ليس إلّا فضولاً، ورغبةً منه في تجربة حياة العمل، لأنّه ليس في حاجة للمرتّب .

سنكون بعد هذا إزاء إيغال سرديّ تتجادل فيه كلّ من العلامة، وممكناتها الدلاليّة كما سيتبيّن بعد قليل .

يمثّل نسق العلامتين « أجل، موافق» قلباً للمنظورات المتعارف عليها في عدّة مستويات:

- **أوّلاً** : هي عبارة تقتضي طبيعتها أنْ تصدر من رب العمل، ولكنْ في هذا التشكيل القصصيّ ستصدر عن طالب العمل، وهي إحالة ساخرة بلون السّواد عن الوضع المتردّي الذي يحصل فيه البعض على وظيفة لمجرّد أنّه يحمل اسما معيّناً، ويقضي البعض الآخر حياته لايجد إلّا الرثاث .
- **ثانيا** : تقتضي طبائع الأمور أنْ يشرف طالب العمل بالوظيفة – نسبياً – لأنّها تكليف في النهاية، أمّا في القصّة فطالب العمل هو من سيشرّف الوظيفة، وفي هذا ما فيه من التعالي .
- **ثالثا** : سيرفض ابن الرجل النافذ الوظيفة، ويكتب استقالته بالعاميّة – حيث إنّ سقفه العقليّ لا يسمح له أنْ يحرّر بالفصحى- ويهدّد بأنْ يلجأ للقضاء حيث ضيّع بعضاً من وقته الثمين في طلب الوظيفة، والذي عرّضه لـ « أضرار نفسيّة خطيرة »[12]، وكم في هذه التسريدة المكتوبة مشهديّتها بإتقان؛ من الإيغال في كشف الفساد حين يتحوّل إلى عبث .

سيكون المتلقّي بعد هذا إزاء لعبة مكشوفة من الألعاب العلاماتيّة، والتي تشكّل ما يشبه التوابل للسّياق العام، وتلعب دور اللّون في اللوحة المشهديّة للقصّة، فعبارات من قبيل قول الشاب طالب العمل : « إنّها دولة أبي »، وحين يوصّفه السّارد بأنّه « ينام عشرين ساعة »، أكثر من هذا كان « يتوقّع أن يستقبل – كوالده - بالبساط الأحمر »، عبارات كهذه لا يمكن أنْ تحمل دلالياً إلّا على السّرياليّة التي تلتحف الفوضويّة، حيث خلقتْ بعض النماذج البشريّة لكي تصيب أكبر قدرٍ من المتع، تعيش فوق القانون لا ضابط لسلوكها، ولا تلتفت للهامش الذي يساكنها الوجود .

ينتقل السارد بعد لعبة العلامات إلى لعبة الإحالة، حين يصوّر هيأة ابن الرجل النافذ (متدفّقاً) من على الكرسيّ، و يضع قبّعة عليها العلم الأمريكيّ، زيادة على كون هذه الصورة إضاءة من السّعيد بوطاجين السيميائي للسعيد بوطاجين السارد؛ فهي تحيل على الصورة التي انكتب في وجدان العوام عن رب المال، الشخص المتصف بالسمنة والضّخامة، كذلك يحيل العلم الأمريكيّ على جملة من العلاقات التي تنسجها السّلط في دول الشموليات مع الإمبرياليّة العالميّة استقواءً على رعيّتها، استقواءً يضمن بقاءها على العروش أطول وقتٍ ممكن .

ولا يمكن أنْ يسلك السارد سلوك السّلط الشّموليّة التي تتناسى الهامش دائماً؛ بل لا يخرج من سرده حتّى يرسمه بسخريّته المعهودة، والهامش في هذه القصّة متمثّل في واجهتين :

- أبناء الفقراء الذين يعييهم الركض خلف وظيفة بسيطة، « والذين سيصطفون طابورا لانتظار موافقة المسؤول الجديد : الأمير ابن الشّخصيّة النّافذة »، إذا (تكرّم) وقبل الوظيفة .
- المرؤوس الذي يظهر في صورة (تابعٍ) بمفهوم غايتيري سبيفاك، والذي يتجرّد من كلّ القيم في سبيل أنْ « يتمتّع بالمرتّب » [13]، والذي يحدث أنْ يتعرّض لِماماً لصحوة ضميرٍ ، فيتبرّم بينه وبيننفسه : «(اللّعنة على هذه الدّنيا) التي جعلتني عبدًا لوالده (عزرائيل) ، وضميره هذا الذي بقي متجمّدا حين يمارس فساده الذي سكت عنه عزرائيل »، وإذا كان جليّاً أنْ يجد السّارد تعاطفاً مع الهامش ممثّلاً في أبناء الفقراء، هل يمثّل النسق الأخير نوعاً من التبرير للموظّف الفاسد من حيث أنّه مغلوب على أمره كجزء من منظومة فاسدة تفسد الصالح، وتزيد الفاسد فساداً ؟.

3.3. نسق الجذروسؤال القيميّة في «السعيد بوطاجين» :

تمثّل هذه القصّة مركز المجموعة لذا تركها السّارد آخر المجموعة حتى تكون آخر ما يعلق بذهنه، أنّها قصّة الإنسان الذي بشّرت الحداثة بردّ اعتباره، وصادمت من أجله كلّ الأساطير والمعبودات، ليجد نفسه في زاوية من الأرض تحكمها الشموليات مجرّد رثاث فائض عن الحاجة، عليه أنْ يختار بين أنْ يكون خادماً، أو وراء القضبان .

تحكي«السعيد بوطاجين» قصّة مواطن لم تعد حياته تعني أيّ شيءيتّجه صوب بلديّة (أبناء الكلب)، بغية استخراج شهادة ميلاد « تؤكّد أني لم أنفق بعد كأيّ دابّةٍ من دواب هذه البريّة»[14]، لكنّه بفاجأ بالموظّف الذي -لا يهتمّ إلّا لأناقته كحسناء – يسخر من اسمه: « لماذا لم تتخلصوا منها أو تستبدلوها بأسماء مشرّفة نافعةلا تجعلكم هزؤا » [15] ، لهذا ينتقم منه المواطن «السعيد بوطاجين»، فيحكي له قصّة جدّه التي يرسمها رسماً هلامياً شبيها بالترسيمة التي أخرج فيها (أسعد) بطل روايته (أعوذ بالله) .

سيكون على«السعيد بوطاجين» أنْ يدخل في ما يشبه العمليّة الاشتقاقيّة في اللغة، حين يفصّل في اشتقاقات اسمه«سعيد»، نحو سعد وسعيدة وسعدية، أنّها كانت أسماء لعبيد وهبوها من طرف الأسياد تفاؤلاً، كما سيحكي قصّة عام المسغبة حين ادلهمّ خطب الجوع، ونفقت الماشية، وأشرف أهل القبيلة على الهلاك، لولا تلك الحبّة من القمح التي زرعها جدّ «السعيد بوطاجين»، والتي أثارت استهزاء أهل القبيلة، وأثارت مساحات شاسعة من القمح، وملأت المخازن منه، سيحكي أيضاً قصّة تعليمه القبيلة لتهيئة الطّعام، وكيف ابتكر الإناء الذي اتُفقَ على تسميته بـ«الطاجين»؛ والذي صار عنواناً عليه، معروفاً به: «أبوطاجين» .

ليس في الإسم –إذن- ما يدعو للضّحك، ولكنّه الجبروت حين يستحكم في النفوس، أو« الإنسان حين يغدو « شيئاً » في دول الشموليات، مع أنّ الإسم ليس سوى شكلاً للمضمون الذي هو الإنسان، بدليل أنّه في المستطاع تغيره، ولا يمثّل عند السّلطة أكثر من ورقة مختومة بختمها » [16] .

كأنّ السّارد بالقصّة التي حكاها عن جدّه يحكي قصّة الإنسان المعاصر، الذي لم يقف مكتوف الأيدي حين نازعته الطبيعة سلطته فقهرها، لأنّه أدرك أنّ الوجود إنّما وجد ليخدمه، وهو ما ظهر في سلوك الجد، من زاوية أخرى يعطي السارد بطله (الجد) صورةً أشبه بصورة الأولياء والقدّيسين، المعمّدة بالروحانيّة والتديّن الصافي، «كانوا يعرفون الله بقلوبهم، أما اليوم فيتقرّبون إليه بأمعائهم الغليظة، لاإسمنت والعقاربالرياء العظيم الذي غدا كعبة »[17] .

إنّ الإتيان على ذكر الجدّ هنا ليس سوى البحث عن القيميّة التي اندرست من الوجود، فأحالت الأنسان إلى مجرّد مسخ، لا يهمّه من هذا الوجود سوى أن تأتيه متعه، عدميّة لا تعتبر الدين والإنسانيّة، وما درج على ألسنة الحماء منذ الأزل .

لكأنّ السارد في انتقامه هذا من الموظّف - والذي يعلم انّها معركة خاسرة مسبّقاً – يشدو مع الجواهري :

هذا أنا عظم الضّحيّة ريشتي**** ولفح دمائها أضوائي.

من جانب آخر يرسم السّارد ترسيمة مغرقة في الواقعيّة حين يرسم الوجه المتوحّش للإدارة في الشموليات، فيعطي نموذج الموظّف الذي لاهمّ له إلّا التأنق كالحسناء، والذي ينادي زميلته (فوفو)، والذي يشغل غالب وقته في حلّ الكلمات المتقاطعة، وهي إحالة إلى أنّ « جانباً كبيرا من بطء عجلة الحضارة تصنعه هاته الإدارات بوساطاتها ومحسوبيتها وكسلها، وما هذا إلّا لغياب منظومة قانونيّة تحدّد الحقوق والواجبات، وتحفظ كرامة الإنسان قبل هذا وذاك » [18] .

4. خـاتـمـة :

مما سبقت به المقاربة يمكننا أنْ نرصد مايلي :

- كان وصول القصّة القصيرة – وإنْ تأخّر بعض الشيء- خيرا على المشهد الفكري عامة، والإبداعي خاصّة، فقد انوجد جنس يختصر يراعي زمنية القراءة، ويرصد بحرفيّة تفاصيل اليوميّ الإنساني، صحيح أنّها عانت أوّل أمرها من غياب أنموذجٍ محلّي، ولكنّها طبيعة لا يسلم منها أيّ وافد .
- لقد حصل الاتفاق على استحالة الإبقاء على المقاربة الجماليّة اللغوية محاورا وحيدا للنصّ الأدبيّ، لأنّ النصّ ليس تشكيلاً لغويا فحسب، بل حادثة ثقافيّة أنتجتها اصطراعات مختلفة قديمة تتمظهر في الأنساق الثقافية، المختزنة في اللاوعي الإنساني .
- يعتبر السعيد بوطاجين -وإنْ كان من الجيل الثاني- أحد رواد القصّة القصيرة، لعدّة اعتبارات تتعلق بالمرجعيّة الثقافيّة التي يحوزها، وكذا اعتبارات ذاتية تخصّ تجربته الإنسانيّة الخاص، ككاتب عاش تجربة حياتية غنية أهّلته أنْ يسبر غور الأنسان على اختلاف توجّهاته ومستوياته .
- شكّل نسق الفساد نسقا كلّيا منذ القدم، من هنا تعمل المؤسّسات الاستراتيجيّة على رصد تمثّلاته في مختلف مستويات المجتمع بغية مكافحته، فليس غريبا أنْ تيمّم القصّة القصيرة – أيضا- وجهتها نحوه، وهي الاقدر على تلمّس التفاصيل وتتبّعها .

- يشكّل سؤال الجذر والقيمية أحد الإشكالات الكبرى في الراهن، وما ذلك إلّا لتراجع إنسانيّة الإنسان، وتغوّل العدميّة التي أضحى من السّهل أنْ تذيب الثوابت، وتحيل الهويات إلى مسخ مرتهن لمبادئها، وهذه القصّة جزء من النضال الذي يسعى إلى إحياء ما اندرس من القيم، وإحياء الروحانيّة التي غيّبتها المادّية .
-

5. المصادروالمراجع :

أ. المصادر:

✓ السعيد بوطاجين، نقطة إلى الجحيم، دار الجزائر تقرأ، 2018 .

ب. المراجع :

✓ قاسمي محمد، بيبليوغرافيا الأدب المغاربي المعاصر، منشورات ضفاف، مؤسّسة النخلة للكتاب، المغرب،2005.
✓ الوناس زهدي ، مقدّمة في التنمية البشريّة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2014 .
✓ عبد المؤمن الجمال، رؤى ما بعد الحداثة، مكتبة النور، ط2، 1995 .
✓ جميل سنوة، نيتشه رائد التنوير، المكتبة العامة العمانية، 2008 .
✓ الباهي مقدم، مدخل إلى سيمياء الأهواء، منشورات صفاف، وجدة ، المغرب، ط1، 2007 .
✓ الباهي مقدم، مدخل إلى سيمياء الأهواء، منشورات صفاف، وجدة ، المغرب، ط1، 2007 .
✓ ينظر كريمة شتوح، القصّة المغاربيّة، دار المتوج للنشر، تونس، 2004 .

6 . الهوامش:

1 ينظر كريمة شتوح، القصّة المغاربيّة، دار المتوج للنشر، تونس، 2004 ص64 وما بعدها.

2 قاسمي محمد، بيبليوغرافيا الأدب المغاربي المعاصر، منشورات ضفاف، مؤسّسة النخلة للكتاب، المغرب،2005،ص199.

3 الباهي مقدم، مدخل إلى سيمياء الأهواء، منشورات صفاف، وجدة ، المغرب، ط1، 2007، ص 32.

4 الباهي مقدم، مدخل إلى سيمياء الأهواء، ص 99 .

5المرجع نفسه، ص 104 .

6 جميل سنوة، نيتشه رائد التنوير، المكتبة العامة العمانية، 2008، ص 202 .

7 نسبة إلى (بروكوست) الذي كان حدّادا وقاطع طريق، وكان يقوم بمط الناس أو قطع أرجلهم لتتناسب وطول السرير

8 عبد المؤمن الجمال، رؤى ما بعد الحداثة، مكتبة النور، ط2، 1995، ص 113 .

9 السعيد بوطاجين، نقطة إلى الجحيم، دار الجزائر تقرأ، 2018، ص 124 .

10 المصدر نفسه ، ص 14 .

11 المصدر نفسه ، ص17.

12 المصدر نفسه ، ص 18.

13 المصدر نفسه ، ص19.

14 المصدر نفسه ، ص113.

15 المصدر نفسه ، ص 115.

16 حسيبة يموش، تأملات في السرد الجزائري المعاصر، ص 91.

17 السعيد بوطاجين، نقطة إلى الجحيم، 119.

18 الوناس زهدي ، مقدّمة في التنمية البشريّة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2014، ص 55.